

الصَّيْدُ طَلِيعَةُ الْحَضَارَةِ

لو أنك سقطت إلى موضع مُوحش لا أنيس به ولا زرع، لكان أول همك أن تبحثَ عن الغذاء الذي هو قِوام جسمك وبَقَاء نفسك. والصيد هو سبيلك إلى ذلك.. فأنت لا تفكر إلا فيه، كيف تحتال له إن كانت الوسيلة إليه الحيلة، وكيف تقهره لتظفر به إن كانت الوسيلة إليه القوة والغلب، ولن تزال كذلك حتى تبلغ ما تريد؛ فإذا اطمأنت إلى ما يقوم عليه أودك، وتستمسك به حياتك، فلست تفكر وراء ذلك إلا فيما تستظل به وتستكن فيه من خيمة أو بناء، فإذا تم لك ذلك فكرت حينئذ في الغرس والزرع، وبذلك يترأى أول الطريق إلى الحضارة.

ومن هنا لا يُستعصى عليك أن تدرك السر في كون الحضارات العريقة نشأت ونمت وترعرعت في أحواض الأنهار، من حيث كان أهلوها أهل زرع وغرس واستقرار.

وقد فصل إجمال هذه الكلمات العالم الباحث (ول ديورانت)، فقال^(١):

إن نظام الوجبات الثلاث في كل يوم نظام اجتماعي غاية في الرقي، أما الأقوام الهمجية فهي إما أن تتخمد نفسها دفعة واحدة أو تمسك عن الطعام.

وإنك لترى أكثر القبائل توحشاً بين الهنود الأمريكيين يحكمون على من يذخر طعاماً لغده بضعف المراس وانعدام الذوق، وكذلك ترى أهل أستراليا

(١) انظر « قصة الحضارة ».

الأصليين لا يستطيعون العمل مادام جزاؤهم عليه لا يجيئهم فور أدائه.

وكل فرد من قبائل (الهوتنتوت - Hettentot)^(١)، هو بمثابة السيد الذى يعيش عيش الفراع، والحياة عند قبيلة (البوشمن - Bushmen)^(٢) فى إفريقيا «إما وليمة وإما مجاعة»، وإن قصر النظر هذا للحكمة صامتة، كما هى الحال فى كثير من أساليب الحياة عند «الهمج»، ذلك أن الإنسان إذا ما بدأ يفكر فى عبء فقد خرج بذلك من جنة عدن إلى وادى الهموم، وحلت به صفة الغم، وها هنا يشتد فيه الجشع، وتبدأ الملكية، ويزول عنه البشر المتهلل الذى يعرفه الإنسان الأول «الخلقى من كل تفكير»، إن الرنجى الأمريكى يمثل اليوم هذه المرحلة من مراحل الانتقال، وقد سأل (بيرى)^(٣) أحد أدلائه من الأسكيمو قائلا: «قيم تفكر؟». فكون جوابه: «ليس لدى ما يدعو إلى التفكير لأن لدى مقداراً كافياً من اللحم». فكون الإنسان لا يفكر إلا إذا اضطرَّ إلى ذلك، قد يكون جماع الحكمة، وقد يكون لهذا الرأى سند قوى يدعمه.

ومع ذلك فتلك الحياة التى خلت من الهموم، كانت لها صعابها، والأحياء التى استطاعت أن تجتاز تلك المرحلة فى تطورها، استفادت بذلك ميزة كبرى تساعدها فى تازع البقاء، فالكلب الذى اختزن تحت الثرى عظمة فاضت عن شهيته - وإنها لشهية الكلاب - ، والسنجاب الذى ادخر البندق لوجبة أخرى فى يوم مقبل، والسحل الذى ملأ حليته بالعسل، والنمل الذى خزن

(١) سبب بطن جنوب وجوب غرى إفريقيا، يسهون «البوس» و اللغة ولتكوين القريش. نظرم الهولنديون إلى التراجع فى داخل افاره. ونهض سددهم كبراً بعد ذلك

(٢) أحد شعوب جنوب إفريقيا، يرتطون من ناحية الأصل بالأفريقى. يسكنون كهوف ويعيشون على فصوص الحيوان الموسوعة العربية.

(٣) مكشف انطب السمال

زاده أكداسًا اثناء يوم مطير - هذه جميعًا كانت أول منشئ للمدينة، فقد كانت هي وأضرابها من المخلوقات الراقية أول من علّم أجدادنا فن أدّخار ما تستغنى عنه اليوم إلى الغد، أو اتخذ الأهبة للشتاء في أيام الصيف الخصبية بخيراتها.

فيا لها من مهارة تلك التي استخرج بها أولئك الأجداد من البر والبحر طعامًا كان بمثابة الأساس لمجتمعاتهم الساذجة. لقد كانوا ينتزعون بأيديهم المجردة انتزاعًا ما يستطيعون أكله مما يُبديه سطح الأرض من أشياء، وكنب تراههم يقلدون أو يستخدمون مخالب الحيوان وأنيابه، ويصنعون لأنفسهم آلات من العاج والعظم والصخر، وينسجون الشباك والمصائد والفخاخ من خيوط الحلفاء والليف، ويصطنعون من الوسائل عددًا لا يحصى لا صطياد فريستهم من يابس أو ماء، لقد كان لأهل بولينزيا^(١) شباك طوها ألف دراع لا يستطيع استخدامها إلا مائة رجل مجتمعين، ويمثل هذا تطوّرت وسائل ادخار القوت جنبًا إلى جنب مع النظم السياسية، وكان اتحاد الناس في تحصيلهم للقوت مما أعان على قيام الدولة، انظر إلى السماء من قبيلة (تلنجت - Trlningir) إذ كان يضع على رأسه غطاءً يُشبه رأس عجل البحر، ثم يخفي نفسه بين الصخور ويصرخ بمثل صوت ذلك الضرب من الحيتان، فتأتيه عجول البحر، فيقطعنها بستان رمح، لا يجد في ذلك ما يؤنبه عليه ضميره، لأنه يتم على أوضاع يرضاها القتال في صورته البدائية، وكان من عادة كثير من القبائل أن يُلقي سماًكوها مادة مخدرة في مجرى الماء ليَهون عليهم استجلاب السمك بعد تخديره، فأهل تاهيتي^(٢) - مثلاً - كانوا يلقيون في الماء سائلًا مسكّرًا يصنعونه من صنف معين من البندق أو ضرب معروف

(١) جرر مشامره في المحيط لهادى مها جرر هاواى ويورىند.

(٢) تاهيتى جزيرة في المحيط الهادى.

لديهم من الليات، فتسكّر الأسماك وتطفو على السطح مخمورة لا تحذر الخطر فيمسك منها السمك ما أراده، والأستراليون والوطليون يسيحون تحت سطح الماء، ويتنفسون خلال قصبات من الغاب، فيتاح لهم أن يجذبوا البط السايح من سوقه إلى جوف الماء، ويظلون ممسكين به هناك في رفق حتى تسكن فيه حركة الحياة، وأبناء قبيلة (تاراهيومارا) كانوا يمسون الطير بأن يلقوا لُباب البندق على ألياف قويه ويربطوه بتلك الألياف التي يعرسونها إلى نصفها في لتراب، فيقتات الطير من اللباب، ثم يقتات (التاراهيوماريون) من الطير.

إن الصيد عند كترتا لغاية اليوم ضرب من اللهو، تستمد فيه اللذة - فيما أظن - من بعض الذكريات العمضة الراسخة في دماننا ولتى تعيد لنا تلك الأيام القديمة حيث كان الصيد عند الصائد والمصيد كليهما أمرًا تتعلق به الحياة أو الموت، ذلك لأن الصيد لم يكن سبيلًا إلى طلب القوت وكفى، بل كان كذلك حربًا يُرد بها الظمأنينة والسادة، حربًا لو قرنت إليها كل ما عرفه التاريخ لدون من حروب، أُنفيت هذه الحروب بالقياس إليها بمثابة النعظ اليسر. ومارال الإنسان في العابة يقاتل في سبيل الحياة، لأنه على الرغم من أن الحيوان هناك لا يكاد يهجم مختارًا، إلا إذا اضطره إلى ذلك الجوع الشديد أو الخوف من الوقوع فريسة لا يجد لنفسه مهربًا يلوذ به، فليس في العابة قوت يكفى الجميع، وأحيانًا لا يُظفر بطعمه إلا المقاتل أو الذى يستخذه نفسه حيوانًا مقاتلاً، وهذا هو ذى متاحفنا تعرض أمام أبصارنا بقايا تلك الحرب التى نشبت بين الإنسان وسائر الأنواع الحيوانية، إذ تعرض أمامنا المدى والمراوات والرماح والقسيّ وحبال الصيد والأفخاخ والمصائد والسهام والمقاليع التى استطاع بها الإنسان الأول أن يقرص سيادته على لأرض، ويهد السبل أمام خلف لا يعترف بالجميل، ليحيا حياة أمنة من كل

حيوان إلا الإنسان. وحتى يومنا هذا، بعد كل ما نشب من حروب تستبعد العاخر عن الحياة لتبقى على القادر، انظر كم صنوف الكائنات الحية ما يزال على وجه الأرض يسعى! لقد يحدث أحياناً إذا ما مشى الإنسان خلال الغابة متراً، أن تأخذه الدهشة العميقة لكثرة ما يسمع هنالك من لغات، ولكثرة ما يرى من أنواع الحشرات والزواحف وأكلة اللحوم والطيور. إن الإنسان ليحسّ عندئذ أنه متطفل قد أقحم نفسه إقحاماً على هذا المشهد بما فيه من راحة الأحياء، وأنه يخوف يخشاه الحيوان جميعاً وبمقته الحيوان جميعاً مقتاً لا ينتهى. ومن يدري فلعلاً يوماً يقبل على الدنيا، فإذا هذه الصنوف من ذوات الأربع في دمدمة أصواتها، وهذه الحشرات التي كأنما هي اليوم تستدرّ عليها عطف الإنسان، وهذه الجراثيم الضئيلة التي تنوء بما عساها أن تصنع، لعل يوماً يقبل على الدنيا فإذا هذه الصنوف جميعاً تلتهم الإنسان التهاماً بكل ما صنعت يده وأنشأت، فتتقد الكوكب الأرضى من هذا الحيوان ذى الساقين الذى لا يفتأ يحول ناهياً سالباً، وهذه الأسلحة العجيبة المصطنعة، وهذه الأقدام التي تجوس في غير حذر.

لم يكن الصيد والسماكة مرحلتين من مراحل التطور الاقتصادي، بل كانا وجهين من أوجه النشاط التي كتب لها أن تظل باقية في أعلى صور المجتمع المتحضر. لقد كانا ذات يوم مركز الحياة، وهما الآن بمثابة أساسيهما الحبيبتين، إذ يكمن وراء أولئك الصيادين الأسداء كل ما لنا من أدب وفلسفة وفن وشعائر عبادة، فكأنما يؤدّى اليوم صيدنا بواسطة غيرنا ننبه عنا، إذ تُعوزنا جرأة القلب التي نقلل بها طرائدنا علناً في الفضاء المكشوف، لكن ذكريات الصيد القديم ما تزال تعاودنا حينما نغبط بمطاردتنا للضعيف أو للذى يلوذ منا بالفرار، بل إنها تعاودنا في ألعاب أطفالنا - حتى الكلمة التي نطلقها اليوم

على اللعب هي نفسها التي تدل على الصيد^(١) - وإذن، فأخر ما نصل إليه في تحليل المدنية هو أنها قائمة على تهيئة الإنسان لطعامه، فإن رأيت فحامة الفن في الكاتدرائية أو مبنى الكابيتول، وإن شهدت متحفًا للفن أو حفلة موسيقية، وإن صادفت مكتبة أو جامعة، فاعلم أن هذه كلها واجهة البناء التي تخفي وراءها أسلاء القتال.

ولم يكن الإنسان مبتكرًا حين اصطاع الصيد وسيلة لعيشه، ولو حصر الإنسان جهده في نطاق الصيد لما كان أكثر من حيوان أكل للحم يضاف إلى قائمة أكلة الحيوان، وإغا بدأت إنسانيته حين تطوّرت حياته من مرحلة الصيد التي يسودها القلق، إلى مرحلة أكثر اطمئنانًا وأوثق اتصالًا واطرادًا، وأعنى بها حياة الرعي، التي اقتضت ميزات عظيمة الخطر، إذ اقتضت استئناس الحيوان وتربية الماشية واستعمال اللبن، إننا لا نعرف كيف بدأ استئناس الحيوان ولا متى بدأ - فربما كان ذلك حين أبقي الصائدون على صفار الحيوان القليل في حلبة الصيد، حين لم يروا لهاتيك الصفار حولًا ولا قوة، فساقوها إلى مقر سكناهم ليتخذها أطفالهم لعبًا يلهون بها، ولقد لبث الإنسان يأكل الحيوان الذي يمك به على هذا النحو، ولكن بعد إهماله فترة من الزمن، وأخذ يستخدمه أداة للقل، ولكنه مع ذلك كاد أن يسلكه في مجتمعه الإنساني كأغما هو منهم، فهو زميل، وهو شريك في العمل والإقامة، ثم تلا ذلك أن أدرك الإنسان معجزة التنازل بين صنوف حيوانه، فأخضعها لإشرافه، واستطاع بعدئذ من ذكر وأنثى أن يمك بها. أن ينشئ لنفسه قطيعًا كاملًا، كذلك خف عن النساء حمل الرضاعة فترة طويلة، بأن استعملن لأطفالهن لبن الحيوان بعد سن معينة، وبهذا قلت نسبة الوفيات في

(١) لفظة Game الإنجليزية تعنى الصيد، وتعنى اللعب أيضًا

الأطفال وظفر الإنسان بمورد جديد مضمون من موارد الطعام، أدى ذلك كله إلى تكاثر الناس وازدادت الحياة ثباتاً واطراداً، وأصبحت سيادة هذا الكائن المحدث الوجل، أعنى الإنسان، أصبحت سيادته على الأرض أكثر اطمئناناً.

وكانت المرأة في أثناء ذلك في طريقها إلى أكبر كشف اقتصادى بين تلك الكشوف جميعاً، وهو معرفة ما يمكن لثربة الأرض أن تُخرجه من طيبات، فبينما كان الرجل في صيده كانت هى تنكت الأرض حول الخيمة أو الكوخ لتلتقط كل ما عساها أن تصادفه فوق الأرض من مأكول، ففى أستراليا كان العُرف القائم هو أنه إذا ما غاب الزوج في رحلات صيده، أخذت الزوجة تحفر الأرض بحثاً عن جذور تؤكل ، وتقطف الثمار والبنديق من الشجر، وتجمع العسل والفُطر^(١) والحب والغلل التى تنبت بالطبيعة، ولا تزال بعض القبائل في أستراليا حتى يومنا هذا تحصد الغلال التى تنبت بالطبيعة دون أن تحاول درس الحبوب وبذرهما، وليت هنود وادى نهر ساكرامنتو^(٢) عند هذه المرحلة لا يجاوزونها أبداً. وهكذا لن يُتاح لنا إلى آخر الدهر أن نعلم متى أدرك الإنسان لأول مرة وظيفة الحبوب، بحيث يتحوّل من جمعها إلى بذرهما في الأرض، فهذه البدايات هى أسرار التاريخ التى سنظل نضرب حولها بمجرد التخمين والحدس، لكننا يستحيل أن نعلم علم اليقين، فيجوز أنه حين أخذ الإنسان في جمع الحبوب الثابتة بطبيعتها، كانت تسقط منها حبات وهو في طريقه من مكان النبات إلى حيث يقيم، فنيهته أخيراً إلى السر العظيم الكامن في نموّ النبات، فألقى الناس من قبيلة (جوانج) البذور في الأرض وتركوها تشقّ لنفسها طريقها إلى الفضاء، وأما أهالى (بورنيو)^(٣)

(١) العطر، يضم الفاء - بات يزكن مثل الكمأة وعش الغراب

(٢) هر في ولاية كاليفورنيا بأمریکا

(٣) جرمه كبيرة جنوب شرق اسيا

فكانوا يضعون الحب في حفرات يحفرونها بعضا مدببة إذ هم سائرون عبر الحقول، فكانت هذه العصا أو «الحافرة» أبسط ما عرفه الإنسان من أدوات زراعة الأرض، وقد كان الرحالة في (مدغشقر) منذ خمسين عاماً يرون النساء وقد امتسقن هذه العصى المدببة، ووقفن في صف كأنهن الجنود، ثم تصدر لهن إشارة البدء فيأخذون في حفر الأرض بعصيَّهن، وقلب التربة ووضع البذور ثم تسوية التربة بأقدامهن من جديد، وبعدئذ يمضين إلى خط آخر من خطوط الحقل. والمرحلة التي تلت ذلك في تقدّم الفلاحة وأدواتها مرحلة استعملت فيها الفأس في الحرث، وذلك بأن ركب الإنسان عظمة في طرف العصا الحافرة، وربط فيها قطعة أخرى مستعرضة لتكون صالحة لضغطها بالقدم، فلما وصل (كونكوستادورس)^(١) إلى المكسيك وجد الأراقة لا يعرفون غير الفأس أداة لحرث الأرض حتى إذا ما استؤنس الحيوان وطُرقت المعادن أمكن استعمال أدوات أثقل، فكبرت الفأس، فانكشفت بذلك خصوبة الأرض الدفينة بحيث تغيّر سيرة الإنسان تغيّرًا كاملاً، فزرع أنواعاً من النبات كانت تستعصى عليه من قبل، واستنبت أنواعاً أخرى، وأصلح من الأنواع التي كان يررعها قبل ذلك.

وأخيراً تعلّم الإنسان عن الطبيعة فنّ التحوط للمستقبل، وفضيلة التبصّر في العواقب، كما تعلّم فكرة الزمن، فلما لاحظ الإنسان الطيور القارة مخزن لندى في الشجر، ولاحظ النحل مخزن العسل في الخلايا، أدرك - وربما جاء إدراكه هذا بعد ألاف من سنين قضاها في هيجية لا تعرف للحيطرة معنى. أدرك فكرة اختزان الطعام للمستقبل، وكشف عن بعض السبل التي تمكنه من حفظ اللحوم بتدخينها وبتمليحها وبتبريدها، وخير من ذلك في سبيل

(١) كونكوستادورس: لعارون الأسباب التي سببها المكسيك.

التقدم ما بناه لنفسه من أهراء للغلال تحفظها من المطر والرطوبة والحشرات واللصوص، فكان يحتفظ في تلك الأهراء بطعام يأكله في أشهر السنة العجاف، وهكذا تبين على مرّ الأيام أن الزراعة يمكن أن تكون موردًا للقوت أجد نوعًا وأثبت أطرادًا من الصيد، فلما أن تحقق الإنسان من هذا خطأ إلى الأمام إحدى الخطوات الثلاث التي نقلته من الحيوانية إلى المدنية، وتلك الخطوات هي الكلام والزراعة والكتابة.

ولا يجوز لك أن تتصور الإنسان قد قفز من الصيد إلى حرث الأرض بوثة واحدة، فكثير من القبائل - مثل الهنود الأمريكيين - جمدوا في مرحلة الانتقال لا يتحولون عنها، فلبث الصيد مهنة الرجال، والحرث مهنة النساء، لا بل لا يكفي أن تقول عن هذا التحول إنه تمّ بخطوات متدرجة، إنما ينبغي أن تضيف إلى ذلك أنه لم يكمل حتى تمامه، ولك أن تقول إن الإنسان بحرته للأرض إنما أضاف طريقة جديدة لاختزان الطعام إلى جانب الطريقة القديمة، ثم ظل طوال عصور التاريخ يغلب عليه أن يؤثر لنفسه طعام المرحلة الأولى على طعام المرحلة الثانية، ويمكننا أن نصور لأنفسنا الإنسان الأول إذ هو يُجرى التجارب على ألوف الأصناف التي تخرجها له من جوفها، حتى لقد عانى في سبيل ذلك ما عانى من ضيق ألمّ بجوفه، لعله واجد أى صنف من هاتيك المنتجات يمكن أكله بحيث يكون مأمون العواقب، ثم أخذ يُجرى التجارب تلو التجارب في مزج هذه الصنوف بالفاكهة والتمر وبالحم والسّمك اللذين اعتادهما من قبل، لكنه خلال تلك التجارب كلها لم ينفك مشوقًا لأكل غنائم الصيد، وإنك لترى الشعوب البدائية مُحبّة للحمّ في طعامها إلى حد الاقتراس، حتى وإن كان طعامهم الرئيسى في الواقع هو الغلال والخضر واللبن، فإذا ما صادفهم حيوان ميت لم يظل أمّد موته،

قالأرجح أن يهجموا عليه في نهم فظيع، وكثيراً ما يستغنون في ذلك عن عملية الطهى حتى لا يضيعوا من وقتهم شيئاً، فيأكلون فريستهم نيئة، مسرعين في ذلك ما أسعفتهم أسنانهم القوية في تمزيقها والتهامها، وسرعان ما تنظر فإذا الباقى أمامهم كومة من عظام، وإسا نسمع عن قبائل بأسرها تترح في طعامها أسبوعاً كاملاً على حوت يلقيه البحر على الشاطئ، وعلى الرغم من معرفة القويحين للطهى فإنهم يفضلون اللحم نيئاً، وإذا أمسكوا بسمكة قتلوها بعضّها خلف خياشيمها، ثم أكلوها من رأسها إلى ذيلها، لا يقومون بإزائها بشيء من الإعداد إطلاقاً؛ إن الشك في أطراد موارد الطعام جعل هذه الشعوب الفطرية تأكل كل ما يصادفها بمعنى الكلمة الحرفي تقريباً، يأكلون السمك وقنابد البحر والضفادع البحرية والبرية والفئران كبيرها وصغيرها، والعناكب والديدان والعقارب والعثة والحشرات والجراد والأساريع والضبّ والثعابين بأنواعها والكلاب والخنزير وجذور النبات وبعض الرواحف والطيور.. ليس بين هذه الأنواع إلا وكان في مكان ما لونا من ألوان الطعام اللذيذ المشتهى عند الأقوام البدائية، وبين القبائل فريق مَهَر في صيد النمل، وبينها فريق آخر يحفف الحشرات في الشمس ويخزنها لتؤكل في وليمة.

إن قائمة الطعام عند القبائل الدنيا لا تكاد تختلف في شيء عنها عند القرود العليا، وجاء الكشف عن النار فحدّد هذا النهم الذي لا يفرّق بين طعام وطعام، وتعاونت النار والزراعة على تحرير الإنسان من اعتماده على الصيد، فطهى الطعام أذاب للإنسان مادق (السليكون) و (النشاء) الموجودتين في آلاف الأصناف من النبات، وقد أخذ الإنسان يزداد اعتماده على الغلال والخضر ويجعل منها غذاءه الرئيسى، على أن الطهى بتليينه لمواد الطعام

الصلبة، قلل من الحاجة إلى المضغ، فبدأ فساد الأسنان الذى هو من وصمات المدينة.

ثم أضاف الإنسان إلى صنف الطعام التى أسلفنا ذكرها صنفاً آخر كان ألذها وأشهاها - وهو زميله الإنسان، ذلك أن أكل اللحم البشرية كان يوماً شائعاً بين الناس جميعاً، فقد وجدناه فى كل القبائل البدائية تقريباً، كما وجدناه بين الشعوب المتأخرة تاريخياً مثل سكان إيرلندا وإيريا^(١) وجماعة اليكت، بل بين أهل الداغاركة فى القرن الحادى عشر، كان اللحم البشرى من لوازم العيش بين قبائل كثيرة ولم يكن الناس يعرفون الجنائز، بل قد كان الأحياء فى الكنفى الأعلى يباعون ويشترى رجالاً ونساءً وأطفالاً، كانوا يُباعون ويشترى علناً على اعتبار أنهم من مواد الطعام، وأما فى جزيرة بريطانيا الجديدة فقد كان اللحم البشرى يُباع فى دكاكين كما يبيع القصابون اللحم الحيوانى اليوم، وكذلك فى بعض جزر سليمان كانوا يسمنون من بقى فى أيديهم من الضحايا البشرية - وخصوصاً النساء - ليولوا بلحومهم الولائم كأنهم الجنائز، وكان الفويجيون ينزلون النساء منزلة أعلى من الكلاب لأن - الكلاب كان مذاقها رديئاً - كما كانوا يقولون، ولما مرَّ (بيبرلوقى) بجزيرة تاهيتى، أخذ رئيس كهل من رؤساء البولينيزيين يشرح له طعامه فقال: «إن مذاق الرجل الأبيض إذا ما أحسن شواؤه كمذاق الموز الناضج»، أما الفويجيون فلم يعجبهم لحم البيض زاعمين أنه زائد فى ملحه عما ينبغى، وقوى الألياف، فالبهار الأوربى إذا ما وقع لهم كاد فى رأيهم ألا يصلح للطعام، وعندهم أن الرجل من بولينزيا ألد طعاماً.

فما أصل هذه العادة؟ ليس هنالك ما يثبت قطعاً أنها نشأت - كما ظن

(١) شبه جزيرة تضم أسبانيا والبرتغال.

الناس من قبل - بسبب قلة في أنواع الطعام الأخرى، فقد بقي التلذذ بمذاق اللحم البشري بعد زوال القحط في مواد الطعام الأخرى لأن العادة قد تكونت وأصبحت مما يستميل الآكل. وما هي ذى الطبيعة، أرسل فيها البصر تر الدم البشري طعاماً شهياً لا يقدم عليه اللاعق في جرع قط، حتى النباتيون البدائيون كانوا سرعان ما يعتادونه بشغف عظيم، ولطالما شرب أهل القبائل دم الإنسان، مع أنهم يكونون في غير هذا الظرف رقيقى القلوب كرام النفوس - ويشربونه عادة باعتباره دواءً، وطوراً باعتباره شعيرة دسية أو وفاء بعهد، ويشربونه عادة على عقيدة منهم أنه سيضيف إلى شارب القوة الحوية التي كانت للمأكول، ولم يكن أحد يشعر بشيء من الحجل في إيثاره اللحم البشري، والظاهر أن البدائيين لم يكونوا يفرقون في حكمهم الأخلاقي بين أكل الإنسان وأكل الحيوان، بل إنه لدعاة للفخار في ميلانيزيا أن يدعو الرئيس أصدقاءه إلى أكلة يقدم فيها إنسان مشوى، وفي ذلك قال رئيس برازيلي فيلسوف: «ما دمت قد قتلت عدوى، فلا شك أنه من الخير أن آكله بدل أن أتركه فيضيع خسارة لا يفيد منها أحد. ليس أسوأ لحالات أن يؤكل الإنسان، لكن أسوأها أن يموت، فإذا ما قُتلت فسواء لدى أأكنى عدو القبيلة أم تركنى، على أنى لا أحد بين صوف الصيد جميعاً ما هو ألد مذاقاً من طعم الإنسان. والحق أنكم أيها البيض قد بلغت الغاية في حسن المذاق».

وبما لا ريب فيه أن هذه العادة قد كان لها حسنات اجتماعية معينة، فقد سبقت إلى الوجود الخطة التي اقترحها (سوفت) في شأن الانتفاع بالأطفال الرائدين عن الحاجة، ثم أفسحت أمام الكهول مجالاً وهو أن يموتوا موتاً فيه نفع للآخرين، أضف إلى ذلك وجهة النظر التي لا ترى في الجنائز إلا إسرافاً لا تدعو إليه ضرورة، ولقد كان من رأى (مونتينى) أن تعذيب الإنسان حتى

يسلم الروح تحت قنح من الورع والتقوى - كما كانت الحال في عصره -
أفظم وحشية من طهيه وأكله بعد موته، وأنه لواجب علينا أن يحترم كل منا
أوهام الآخر - انتهى كلام ديورانت - .

ولست أراك الا كما رأيت نفسى بعد أن فرغت من قراءة هذا الفصل،
كثير التعجب شديد الحيرة من أن يأكل الإنسان أخاه على طريق الحقيقة
وليس على طريق المجاز، ولو قد كان الرجل ذكر هذا الذى ذكره عن
الإفريقيين أو الآسيويين واستثنى من ذلك قومه، لقلنا عصبية أجناس حملته
على أن يرمى بالوحشية زنوجاً أو ملونين، فأما وقد ذكر ذلك الذى يُعيب
قومه ويرميهم بالتوحش، كما يعيب الآخرين ويرميهم بالتوحش، فقد دل
بذلك على أن الأمر أمر استقراء وتبيان حقائق، وليس أمر استعلاء بعرق أو
جنس، وتحقيراً لآخرين جرت السُّنة بتحقيهم ورميهم بكل ما يُبعدهم عن
منزلة الإنسان ودينهم من منزلة الحيوان فى اعتبار بعض المتعالمين بالعروق
والأجناس.

إن غريزة حب النفس فى الإنسان، أقوى الغرائز سلطاناً عليه، فهى
توجّهه أبداً إلى ما يصون حياته، بل إلى كل ما يوفر له الكماليات فضلاً
عن الضروريات، فإذا أحسَّ المرء أن حياته معرضة للخطر، فإنه يفعل كل
شئ يستبقى به حياته، كأننا ما كان من البعد عن كل أمر يُعقل أو يُقبل،
وشاهد ذلك أن الناس فى المجاعات فى كل مكان، كانوا يأكلون بني أبيهم
فراراً من الموت وحرصاً على الحياة، حتى أولئك الذين بلغوا من الحضارة
أرفع المنازل.

وفى بلادنا العريقة فى الحضارة وفى التدين معاً - مصر - بل فى الشرق
كله المعروف بالصبر على مقاساة الأهوال والإغراق فى الروحانيات، حدثت

صَوْرَ فاجعة من القحط، اجترأ فيها الناس على مالم يكن يجزى في أوهامهم لولا شدة البلاء حتى لقد أكل بعضهم بعضاً في بعض الأحيان وفي بعض الأقطار.

ونورد لك صوراً من هذا البلاء تؤكد أن غريزة حب الحياة تدفع في كثير من الأحيان إلى أن يأكل الناس بعضهم بعضاً.

ومن أفحش ذلك ما تجده في كتاب السلوك وفي كتاب «الخطط» وفي كتاب «إغاثة الأمة» للمقرئى من صور لا يحتملها هذا الكتاب، يذكر لك منها على سبيل المثال الغلاء الذى فحش أمره وشنع ذكره وكان أمده سبع سنين في أيام المستنصر من خلفاء الفاطميين بمصر، وقد كان سبب هذا الغلاء ضعف السلطنة واختلال أحوال الملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الغنى وقصور النيل وفلة من يزرع ما شمله الرى؛ وكان ابتداء ذلك في سنة سبع وخمسين وأربع مائة، فترع السعر^(١) وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء، حتى تعطلت الأرض من الزراعة وشمل الخوف، وخيفت السبل في البر والبحر، وتعدّر السير إلى الأماكن إلا بالخفارة الكثيرة وركوب الفرر والتعرض للخطر.

وقد انعدم القوت فاستولى الجوع على الناس حتى بيع رغيف خبز في النداء برفاق القناديل من الفسطاط بخمسة عشر ديناراً، وبيع الأردب من القمح بشمسين ديناراً، وأكل الناس الكلاب والبطاط حتى قُلت الكلاب، فبيع كلب للأكل بخمسة دنانير.

وزادت الحال سوءاً حتى أكل الناس بعضهم بعضاً، وتحرّز الناس، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم حباًل فيها كلاليب، فإذا مرّ بهم

أحد ألقوها عليه وتشلوه في أسرع وقت وشرّحوا لحمه وأكلوه.

ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره، فصار يجلس على حصير، وتعطلت دواوينه وذهب وقاره. وكانت نساء القصور تخرج ناشرات شعورهن صانحات: الجوع الجوع، ثم يسقطن ميتات. ولو باع المستنصر حلية قبور آبائه؛ وذات يوم جاءه الوزير على بغلته فأكلتها العامة فششق طائفة منهم، فاجتمع عليهم الناس وهم موتى مشنوقين فأكلوهم. وأفضى الأمر إلى أن عَدَم المستنصر نفسه القوت، وكانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث إليه في كل يوم بقعب من فتيت، من جملة ما كان لها من البر والصدقات في تلك الغلوة، حتى أنفقت ما لها كله في سبيل البر، وكان يُجَلَّل عن الإحصاء.. ولم يكن للمستنصر قوت سوى ما كانت تبعث به إليه، وهو مرة واحدة في اليوم واليلة.

من الأعاجيب:

ذكر المقرئ من هذه الأعاجيب، أن امرأة من أرباب البيوتات أخذت عقدًا لها قيمته ألف دينار وعرضته على جماعة يعطونها به دقيقًا، فاعتدروا إليها وراح كل منهم يدفعها عن نفسه، ولكن واحدًا منهم أدركته الرحمة بها فباعها بهذا العقد تليس دقيق بمصر القديمة، وكانت المرأة تسكن بالقاهرة، فلما أخذت التليس أعطت بعضه لمن يحمله من النهاية في الطريق، فلما وصلت إلى باب زويلة، تسلمته من الحماة له ومشت قليلاً، ولكن الناس تكاثروا عليه وانتهبوه، فأخذت هي أيضاً مع النهايين ملء يديها من الدقيق لم ينباها غيره، ثم عجنته وخبزته، فلما صار قُرصة أخذتها معها، وتوصّلت إلى أخذ أبواب القصر، ثم وقفت على مكان عال رافعة القرصة بحيث يراها

ناس، ثم نادى بأعلى صوته: «يا أهل القاهرة ادعوا لمولانا المستنصر الذى أسعد الله الناس بأيامه وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت على هذه القرصة بألف دينار».

فلما اتصل بالمستنصر ذلك الخبر امتعض له وقدح فيه وحرك منه، فأحضر الوالى وتهدهد وتوعده مقسماً له بالله جلّت قدرته أنه إن لم يظهر الخبر فى الأسواق وينحل السعر ليضربن عنقه ولينهبن الناس ماله، فخرج الوالى من بين يديه وقد دبر حيلة ذكية تبلغ بصاحبها ما يريد.

حيلة بارعة:

كان من بين المسجونين قوم استحقوا القتل لجنايات ارتكبوها من قبل، ولم يكن قد نفذ فيهم حكم الإعدام، فلما تهدد المستنصر الوالى على تلك الصورة الحازمة، جمع الوالى عقله إلى دينه، واستخرج من بينها حيلة خليقة بالخلود فيما كتب المؤرخون، وخلاصتها أنه أخرج من الحبس أولئك الدين كانوا قد استحقوا الموت بجناياتهم، ثم أفاض عليهم نيباً واسعة، وعمائم مدوّرة، وطبائلس سائلة توهج الناس أن هؤلاء من كبار التجار فى مصر والقاهرة، ثم جمع تجار الغلة والخبازين والطحانين وقد عقد لهم مجلساً عظيماً، ثم أمر بإحضار واحد من أولئك الدين استحقوا القتل، فدخل على المجلس فى هيئة عظيمة، حتى إذا مثل بين يدى الوالى قال له: ويلك، وما كفاك أنك خنت السلطان واستوليت على مال الديوان، حتى خربت الأعمال وبحقت الغلال، فأدى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعيّة؟ يا غلام: اضرب عنقه، فُضربت عنقه فى الحال، وترك ملقى فى المجلس بين يدى الوالى، ثم أمر بإحضار آخر من هؤلاء الجساء، وقال له مثل ما قال للأول، ثم أمر بضرب

عنقه فُضِرَتْ وترك في المجلس على حاله، فقام إليه الحاضرون من التجار والطحانيين والخبازين قائلين: «أيها الأمير، في بعض ما جرى كفاية، ونحن نخرج بالعلة وندير الطواحين ونعمر الأسواق بالخبز ونرخص الأسعار على الناس ونبيع الخبز رطلاً بدرهم، ولكنه أبي عليه ذلك حتى قبلوا أن يبيعوا الرطلين بدرهم، فرضيَ منهم بذلك بعد التوسُّل والضراعة إليه، ثم وفوا بما اشترط، وتدارك الله الخلق وأجرى الليل وسكنت الفتنة، وزرع الناس، وتلاحق الخير، وانكشفت الشدة وفرجت الكربة. وخبر هذه الغلوات مشهور، وفي هذا القدر كفاية من التعريف، والله يقبض ويبسط وإليه تُرجعون.

متقول غير معقول:

وفي هذا الصدد يذكر بعض المؤرخين أن أكل الناس بعضهم بعضاً في أيام المجاعات والقحوط، جعلهم يسبعون لحم بني آدم هنا في مصر العريقة في الحضارة والدين، حتى تجاوزوا بذلك أيام الحدب إلى أيام الرخاء، فكانوا يأكلون الأطفال شواء على موائدهم لأنفسهم ولأضيافهم، فكلما عظم مقام الضيف عندهم التمسوا له صبيّاً يذبحونه ويشوونه ويقدمونه إليه على موائدهم كما يفعلون بالحيملان^(١).

ولسنا قادرين على أن نستسيغ هذا اللون من القصص بالغه ما بلغت الثقة برؤاها، فإن ذلك أظهر شناعة وأبين قبحاً وأدخل في باب انتهاك حرمان الله من أكل الخنزير، وشعبنا كان شعباً مسلماً متديناً في هذه الفترة من الزمان، فإذا حملته الضرورة على أن يأكل بشراً مثله، فإنه يأكله بحكم هذه الضرورة، فإذا انتهت الضرورة ارتفع الحكم، شأنه في ذلك شأن أكل

الميتة والدم ولحم الخنزير وشرب الجرعة من الخمر لإزالة الغصة، خضوعاً لمطلق الضرورة، وقبولاً لرخصة الدين، فأما وقد ارتفعت الضرورات وعم الخصب وأقبل الرخاء، فإن من غير المعقول أن يأكل الناس صغار بني آدم، لأن الإلف غير قادر - مهما طال به الأمد - على أن يجعل غير السائغ سائغاً، وغير المعقول مقعولاً، ولهذا نرفض هذه الرواية مهما تكن منزلتها في اعتبار المؤرخين^(١).

نعجب مع الجاحظ:

إنك بعد أن مضيت معاً في هذا البحث إلى هذا المدى، مستطيع أن تتمثل أمرين قد تسع أحدهما بقدر ما تلفظ الآخر: فأما الذي تسيعه، فهو أن يستبقى المرء حياته ولو بأكل إنسان مثله، وأما الذي تلفظه ولا تسيعه، فإن يألف الناس هذه الصورة الكريهة حتى يستصحبوها أيام رخائهم واستفاضة الخير بينهم. وأنت إذا لم تسع ذلك كما لم تسعه نحن فأنكرته كما أنكرناه، وعجبت كما عجبنا لروايته وتدوينه في الكتب حديثاً وفي الشعر العربي قديماً، فإننا: لا نحن ولا أنت نقف وحدنا هذا الموقف أو نراه عجيبيّاً غريباً في باب الحياة، ولكننا نقف مع عالم عاقل أديب، هو أبو عشمخ نفلح ح الجاحظ حيث ذكر ذلك في شعر مروي، ثم قرّر أن هذا الذي ذكره من أكل لحوم البشر إنما هو من أعاجيب الدنيا.

ونروى لك مما ذكره الجاحظ في هذا الباب، باب أكل الناس بعضهم لحمان بعض ما قاله معروف الدبيرى:

(١) راجع «إفادة ولاعب» لمؤرخ عبد اللطيف البعداوى.

إذا ما ضُفْتُ يوماً فقعسيا فلا تطعم له أبداً طعاما
فإن اللحم إنسانٌ فدعه وخيرَ الزاد مامنعُ الحرما

وقد هُجيت هذيل وأسد وبلعنبر وباهلة بأكل لحوم الناس، فقال حسان
ابن ثابت يذكر هذيلاً:

إن سرك الغدر صرفاً لامزاج له فأت الرجيع وسل عن دار لحيان
قوم تواصوا بأكل الجار بينهمو فالكلب والنشاة والإنسان سيان

وقال أحد الشعراء يهجو باهلة بأنها أكلت شخصاً يدعى غفاقاً:

إن غفاقاً أكلته باهلة تمشوا عظامه وكاهله
وأصبحتُ أم غفاق ثاكلة

وقد ذكر الجاحظ في هذا الباب غير هذا الشعر الذي روّياه، فراجعهُ إن
شئت.

لا بد من وقفة:

إنك إذا تمثلت صورة الحياة عند الأمة العربية، فإنك بلا ريب تقف حائراً
بين تحمل هذا الكلام على حقيقته، وأن تحمله على ما يجافى الحقيقة، فإن من
غير الميسور أن يُحمل أكل العربي أخاه أو أخته على الحقيقة، وذلك لأن
بحال الصيد فسيح، فبدلاً من أن يأكل إنساناً، يلتمس صيداً ليأكله، ويقرب
هذا الفرض أن الجاحظ روى هذا في باب الهجاء، فلعله من قبيل أكاذيب
الشعر حين يهجو الشاعر قبيلة من القبائل، فيرميها بهذه العظائم وأمثالها.

ثم إن بعض العرب كان يموت من الجوع ولم نعرف من طريق سوى
الشعر - شعر التهاجي - أنهم كانوا يأكل بعضهم بعضاً، لأن لهم عن ذلك
مندوحة في صورة من صورتين:

إحداهما الصيد، وثانيتهما التغاور والتناهب، كما بصور ذلك القطامي الشاعر حيث يقول:

ومن ربط الجحاش فإن فينا قنا سلماً وأفراساً حسانا
وكنّ إذا أغرن على جناب وأعوزهنّ نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول وضية إنه من حان حانا
وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

يقول الشاعر في هذه الأبيات إننا لسنا أهل حضر نقتي الجحاش ولكننا أهل بادية وأرياب غزو نقتي الخيل العتاق لنغزو عليها، ونصطفى الرماح الطوال لنقاتل بها، فإذا أغرنا على القبائل من حولنا بددنا شملها وأزعجنا أمنها وانتهينا مالها، فصارت تتقينا وتمعن في الحرب منا، فإن لم نجد من نغير عليه من الأبعاد أغرنا على أقاربنا وأبناء عمومتنا، وعلى النازلين فيهم ومن حولهم، ومن قدر له الهلاك فلا بد أن يدركه، وفي كل من الصورتين الصيد والتغاور والتناهب فناء للعري عن أن يأكل أخته أو أخاه، وهذا النظر نستبعد كما استبعد كثير من أهل العلم أن يكون لحم الإنسان طعاماً للإنسان في أيام الخصب. فأما في أيام القحوط والمجاعات، فإن أكل الناس بعضهم بعضاً ماثور يستوى فيه العرب والعجم، والبيض والسود، بغير فرق لأن حب الإنسان للحياة وحرصه على استبقائها يمهّد بين يديه السبل لإساعة لحم الإنسان كما يسيف لحم الحيوان.